الحوار والصراع في تمثيليات
محمد الأخضر عبد القادر السائحي

د. عبد الحق منصور بوناب
جامعة20أوت1955سكيكدة

الملخص:

السّمة المشتركة بين هذه التّمثيليات (الشاعر الزنجي وأخواتها) هي المزاوجة بين الشّعر والنّثر في الحوار والصراع من أجل إثبات الذات، وإبراز قيمة الإنسان ما يحسنه ، و الصراع من أجل الحب والسلطة، والانتقال من المجد السياسي إلى تحقيق السبق و المجد العلمي، وهذه التمثيليات تؤرخ لشخصيات حقيقية عاشت في أزمنة متباعدة وبيئات مختلفة ولهذا جاءت مضامينها ثرية، وهي منتخبات أراد من خلالها الكاتب الوقوف على قيم إنسانية، ولأنّ أفعال الإنسان وأقواله تتميز بوجود أهداف وغايات ومقاصد فقد استحضر مشاهد من التاريخ لأخذ الدروس والعبر من السّابقين في ميادين العلم والمعرفة والسياسة والحياة العامة.

Summary:

A common feature of these dramas is the combination of poetry and prose in dialogue and the struggle for self-assertion, and to highlight the value of a man is improve it, and the struggle for love and power, and the transition from political glory to achieve a head start and scientific glory, these dramas chronicling the real figures lived in the times of spaced different environments and this came contents wealthy, the teams wanted through which the writer stand on humane values, and because of human actions and his words feature goals and objectives and purposes has evoked scenes from history to take lessons from the former in the fields of science, knowledge, politics and public life.

ألّف السائحي أربع تمثيليات طبعت في كتاب بعنوان "الشاعر الزنجي وأخواتها".وقد تنوعت من حيث المضمون، ومن حيث ما فيها من حوار وصراع ،لكنّ السّمة المشتركة بين هذه التّمثيليات هي المزاوجة بين الشّعر والنّثر في الحوار باستثناء التمثيلية الأولى التي خلت من الشعر وجاء الحوار فيها نثريا، وسيتمّ تناول الجوانب البارزة من كل تمثيلية بغية تشكيل صورة إجمالية عن هذا الجنس الأدبي عند السائحي.

1-**تمثيلية " الطريق الأصفر**" أو "الصراع من أجل إثبات الذات"

لعلّ اللافت للانتباه في هذه التمثيلية عنوانها ،فهو قد لا يدلّ على شيء محدد إذا عزل عن نصّه،ولكن بعد قراءتنا للمشهد الأول(صالح يحدث نفسه أمام ضيعة النّخيل الواقعة في الطريق الأصفر) نعرف الجواب وسرّ تسميتها بالطريق الأصفر،وذلك ما يظهر فيما يلي:

((**صالح**: يا لك من طريق ، أمن أجل هذه الرياح والعواصف سمّوك الطريق الأصفر؟ أم ترى هناك سرّ تحتضنه جنباتك وتأبى أن تبوح به لأيّ كان؟ مهما يكن سرّك أيها الطريق فإني كرهت عبورك، كرهت رؤيتك تمتد أمامي حتىّ كأنك بدون نهاية ؟)).[1]

يبدأ الصراع بين البطل (صالح) وبين المكان (الطريق الأصفر) ، حيث نشعر برغبة ملحة من طرف صالح في الانفصال عن المكان مهما كانت الوسائل والنتائج،وفي السطور الآتية يخاطب صالح الطّريق الأصفر قائلا:((إنني أنظر إليك فلا أشعر بقيمة ما أملك من ضيعات إن كل ما تركه لي والدي من غابات النخيل الكثيرة يتضاءل أمامك؟ إنّك ترهبني أيّها الطّريق ولكنّي مرغم على عبورك، أتظنّ أنّي فعلا مرغم على عبورك؟ أبدا إنك مخطئ، سوف أشقّ لنفسي طريقا آخر حتى في السّماء ولن أرى وجهك الطويل الذي يحتوي على كل شيء ولا يحتويه أي شيء)).[2]

يبدو الحوار داخليا بين البطل والطريق الأصفر، فالبطل يصرّح منذ البداية بوجود عقبة تقف في طريقه ،وتتمثّل في الطريق الأصفر الذي يؤدي إلى غابات النخيل التي يملكها فيخاطبه بقوله :(إنّك ترهبني ولكنّي مرغم على عبورك) إنّنا نحسّ أن البطل سيحاول -منذ البداية- تجاوز هذا الصراع الداخلي الذي يعتمل في نفسه، وسيبحث عن حل يريحه من هذا المكان الذي لا يشعر بلذّة الانتماء إليه وهذا ما يقرّره البطل فيما يلي:

(صالح مواصلا كلامه السابق):((ماذا سأفعل لأتخلص منك ؟إنّي لا أستطيع أن أزيحك أنت ولذا فإنّي مجبر على إزاحة نفسي عنك،إن أحسن حلّ لهذه القضية هو أن أبيع الضيعة التي تتوجك وهكذا يصبح لك رواد جدد وأصبح في غنى عن سلوكك ولو مرة واحدة في العام)). (3)

إن هذا الحوار الداخلي من صميم المسرح ((فالمسرح هو جدل مبدئي يدور حول إمكانيات ووظيفة الإنسان وحول دوره في المجتمع وحول آفاق التطور الاجتماعي لأشكال الفنّ)).(4) وإذا كان الحوار الداخلي الذي يدور في فكر صالح وموقفه من الطريق الأصفر قد أعطى فكرة عن صراع داخلي يعتمل في نفس البطل، فإنّ هذا الصراع سرعان ما ينمو ويتطور حينما يعلم "عمر" صهر البطل "صالح" بأنه يريد بيع ضيعة الطريق الأصفر، فيرفع عريضة إلى القاضي للحجر على صالح ،لأنّ هذا الأخير لم يبلغ السنّ القانونية التي تؤهله للتصرف في أملاكه، وبعد صدور الحكم بالحجر عليه يحسّ البطل بمزيد من الصراع الداخلي نتيجة إحساسه بالعجز عن التّصرف في أملاكه ،ونتيجة عدم تخلّصه من علاقة الانتماء إلى مكان لم يعد يرغب في البقاء فيه، ويتجلّى هذا أكثر في مقتطفات من كلام صالح ومعها نتتبع درجات الصراع في تطورها.

((-صالح:لقد آلمني أن وجدت نفسي في آخر لحظة طفلا لا يستطيع أن يتصرّف في شيء...لقد تصورت نفسي في تلك اللحظة ريشة طائرة في الهواء بل أخف وأحقر...منذ أن نطق العدل بأنّي لا أملك حق التّصرف في أملاكي انفتح لي الأفق عن طريق جديد،إنّها ليست الطريق الأصفر ولا ضيعة الطريق الأصفر إنّها طريق الصراع من أجل البقاء من أجل إثبات وجودي من أجل أن أكون أنا أنا)) .(5)

لقد صرح البطل بأنه بدأ مرحلة حاسمة من حياته تتّسم بالصراع من أجل إثبات الذات هذا الصراع سرعان ما أخذ مسارا أكثر عمقا وحدّة بعد أن بلغ السن القانونية التي تخول له التصرف في أملاكه ،حيث سارع إلى بيع ما يملك من ضياع ، وقرّر الرحيل تاركا زوجته وابنه الصغير وفي نفسه متأججة بصراع داخلي عميق ،صراع من أجل تحقيق أحلام و أوهام عششت في ذهنه وسيطرت على حياته بأكملها ونلاحظ ذلك في هذا المشهد الحواري بينه وبين زوجته مريم.

((-مريم:إنّ كلّ ما فعلته هذه الأيام لا يهمّني،إنّ الضّياع التي بعتها والأموال التي بذرتها يمينا وشمالا وجميع التصرفات التي قمت بها لا اعتبرها ضارة إنّما أن تسافر وتتركني مع ولدك وحيدين ضائعين فهذا أكثر من أن أتحمله إنه فوق طاقتي.

-صالح:إنّك تخطئين حينما تنظرين إلى سفري هذه النظرة ألم تفهمي أن سفري علاج لابدّ منه؟إنّي مقدم عليه وأنا أصارع لواعج نفسي التي تشدّني إليك وإلى ولدي إنّكما عندي أغلى من جميع الدنيا". (6)

إنّ هذا المشهد الحواري متأزم جدا ،ففي كلام مريم نلمس الإحساس بالضياع والتلاشي والحيرة والعجز وبالتالي فهي لا تلوم زوجها على تهوّره وطيشه وأفعاله السلبية التي قام بها، وكل ما ترجوه منه هو أن يبقى معها ليساعدها في رعاية ولدهما الصغير،وفي المقابل نكتشف سيطرة الوهم الكامن في أعماق صالح والمتمثّل في تحقيق الذات بعيدا عن المكان الذي نشأ فيه وتحقيق أحلام زائفة لم يصرح بها إنّه اللاشعور يسيره ويسيطر عليه فهو يريد أن يثأر لما تعرض له من إحساس بالاضطهاد من طرف صهره ، وهو بأفعاله المتهورة يحاول أن يثبت ذاته مهما كانت الخسائر كبيرة، المهمّ أن يتصرف كما يحلو له حتى ولو عاث في الأرض فسادا، ونكتشف السبب في رغبة صالح في الانفصال عن المكان الذي شهد مسقط رأسه وعن أسرته الصغيرة في المشهد الحواري الآتي-بعد أن تمكن صالح من السفر إلى تونس والتقى بابن بلدته أحمد-:

"-أحمد: هيا بنا إلى المقهى أولا ما الذي جاء بك ؟كيف سمح لك عمك أن تسافر؟أم أنّك تحايلت عليه؟

-صالح :لا هذا ولا ذاك، لقد رأيت أنّ إقامتي في مدينة صغيرة سوف تضر بي أكثر مما تنفعني خاصة إذا كانت مثل قريتنا لا شغل لأهلها إلا ما يصنعه الآخرون". (7)

نكتشف أن سبب رغبة صالح في الانفصال عن المكان الذي نشأ فيه هو طبيعة ساكنيه فهم يكثرون من القيل والقال وكثرة السؤال ولا هم لهم إلا تتبّع خصوصيات غيرهم،والحديث عن الآخرين،ولذلك فهو لم يحتمل هذا الوضع فباع ما يملك من ضياع وهاجر مبتعدا عن المكان ، ليبحث عن تطلّعاته وأمانيه، كما أنّ الحوار في المشهد السابق يتفق مع القول القائل" فليست المسالة في الحوار مسالة إنشاء خطابي رفيع بمقدار ما هي مسألة صوغ طبيعي للكلام منبثق عن حقيقة الشخصية المسرحية في كل أبعادها ويفيض منها كما يفيض الماء من الينبوع فيضا تلقائيا متفجرا". (8)

وهذا ما ينطبق تماما على الحوار السابق حيث بادر أحمد بطرح تساؤلات متتالية لمعرفته السابقة بظروف صالح الذي كان يعاني من سيطرة صهره عليه ، وجاء ردّ صالح تلقائيا كاشفا له ولنا عن سرّ رغبته في هجرة المكان الذي شهد مسقط رأسه والتّجوال في ربوع الأرض.

وبعد مدة قصيرة من وصوله إلى تونس أنفق صالح كل أمواله في اللّهو والمجون ، وبين عشيّة وضحاها وجد نفسه بالكاد يتدبر قوت يومه، وهنا يبدأ صراع جديد ؛صراع من أجل البقاء، صراع من أجل النهوض من المستنقع الذي وقع فيه ، والرغبة في تعويض ما فات ،ونلمس هذا في كلام صالح مخاطبا صديقه عبد الرحمن.

((-صالح:ياسي عبد الرحمن لقد بلغت إلى حدها كما يقولون،وماذا بقي لي بعد أن أمسيت أعجز عن ثمن قهوة أو عدة سجائر، لقد انتهى كل شيء، نفد المال والزاد، نفد التحايل والمصابرة والدخول من باب والخروج من آخر، ماذا أصنع الآن وأنا لا أحسن أي شيء)).(9)

وبعد حوار مع عبد الرحمن الذي حاول سبر أغوار نفسية صالح ، وهل حقق هدفه في إثبات ذاته أم لا، يقرّ البطل ضمنيا أنه أخطأ في تقديره للأمور وكان بإمكانه تحقيق ذاته دون أن يهاجر ويتخلّى عن زوجته وولده ويبذّر أمواله يمينا وشمالا ، إذ أنه لا يعرف الإجابة عن السؤال الذي كان يعتمل في صدره في بداية المسرحية:

((-عبد الرحمن:أي تصرف تشعر في نفسك أنك نادم عليه ندامة صدق؟

-صالح:هنا أيضا لا أستطيع أن أجيبك بالضبط فمن جهة أني فرضت وجودي لا أشعر بأي ندم، ومن جهة أنّي أفرطت في إثبات هذا الوجود فإني أحسّ بهاتف يقول لي :ما كان عليك أن تقوم بكل تلك الأعمال لتقول للناس إنّك أنت... فقد كان يكفي بيع غابة الطريق الأصفر للتأكد من ذلك ، بل ربّما نخلة واحدة كان كافيا)).(10)

لقد وصل صالح إلى الإقرار بأنه تجاوز الحدود في اندفاعه وراء هاتف داخلي مصدره الإحساس بأنه مضطهد -من طرف عمه وصهره في الوقت نفسه-،وعدم قدرته على التصرف في أملاكه ، فأضاع نفسه وماله، إلا أن البطل في النّهاية قد استخلص الدروس والعبر من تجربته وحقق ذاته بعد كفاح وصبر،نجد ذلك كله فيما يلي:

((-صالح:لقد أصبحت شخصا آخر، لقد دفن ذلك الشخص العفن،ذلك الذي كان مريضا بالمخدّرات والخمور وجميع الموبقات...إنني الآن والحمد لله محافظ على صلاتي، قائم بواجباتي، تائب إلى الله العلي القدير، نظيف الأصدقاء محترم بين الجيران)).(11)

لقد تخلّص صالح أخيرا من انسياقه وراء أهوائه ورغباته الطائشة ،وخضع لسلطان الحقيقة وعرف نفسه وحقق ذاته -أخيرا- كما يجب لها أن تكون ، لا كما كان يريد لها أن تكون، وهذا هو الأهم ، فالإنسان الناجح هو الذي لا يكرر أخطاء الماضي في المستقبل.

2-**تمثيلية "نصيب الشاعر الزنجي"** أو " قيمة الإنسان ما يحسنه"

هذه التمثيلية كما يقول عنها مؤلفها((ذات أحداث تاريخية نلمس خلال مشاهدها: صدق الحب وحرارته ونصاعة المبادئ الإسلامية التي لا تفرق بين الأبيض والأسود إلا بالتقوى)).[12] والشخصية المحورية في هذه التمثيلية تتمثل في "نصيب" المشهور بالشاعر الزنجي ،مولى راشد بن عبد العزى، ثم مولى عبد العزيز بن مروان ، وقد توفي سنة113هـ،وإلى جانب نصيب شخصية زينب بنت صفوان الكناني محبوبة نصيب ثمّ زوجته،وسليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي ما بين 96 و 99هـ ،إلى جانب شخصيات ثانوية ،والجدير بالذكر أن هذه التمثيلية قد قدمت في الإذاعة الجزائرية، وتتألف من ثلاثة فصول،أما الفصل الأول فنشهد فيه ظهور شاعرية نصيب وسريان هذا الخبر بين أعيان القبيلة وخوفهم من أن يشبّب بنسائهم ، فيدور الحوار ويبدأ الصراع، وهذا المشهد يبيّن ذلك: ((-صفوان:يا ابن العم إن عبدك هذا قد برع في الشعر، ونخشى أن يهجو أحدنا أو أن يشبب بنسائنا، وليس لنا في إحدى الخلتين سيرة.

-أحد الجماعة:أي والله لا خير فيهما.

-راشد:عهدي بك عاقل، مدبر، حكيم، يا نصيب، فما دفعك إلى هذا الطيش؟

-نصيب:عفوك يا مولاي، إنه ليس بالطيش ولكنه فوق طاقتي.

-راشد: ماذا ترون يا آل كنانة؟

صفوان:لقد قلنا رأينا،وماذا ننتظر من عبد زنجي برع في الشعر إلا أن يهجو أحدنا ويمس عرضنا)).[13]

لقد بدأ الصراع الداخلي في نفس " نصيب " فهو لا قدرة له على كبح جماح الشعر المتدفق من كيانه، وهذا ما أحدث حالة استنفار قصوى بين آل كنانة مخافة أن يلحقهم أذى من هذا العبد الذي برع في نظم الشعر،ومن أجل فكّ هذه العقدة يطلب راشد من نصيب أن يبحث عمّن يشتريه ، فقد أجمع أعيان القبيلة على إبعاده عنهم ، فيقصد نصيب الأمير عبد العزيز بن مروان ويمدحه بقصيدة ثم يطلب منه اشتراءه من سيده، فيوافق الأمير على شرائه بعد المزايدة في السوق، وبالتالي يتمكن نصيب من الاحتفاظ بحريته في نظم الشعر ويرتاح آل كنانة من خطره.

وفي الفصل الثاني يبدأ صراع من نوع آخر من خلال حوار بين زينب وصديقتها رملة -وهي في الوقت نفسه إحدى بنات عمومتها-،صراع أفكار حول قيمة الإنسان ،أو بالأحرى هل يقاس الإنسان بمظهره أم بأخلاقه

وسلوكه ؟ ويدور المشهد الأول في بيت صفوان والد زينب إذ تدخل رملة عليها وهي تقرأ رسالة من نصيب الّتي يقول فيها:

((-زينب: فإن أك حالكا فالمسك أحوى وما لسواد جلدي من دواء

وبي كرم عن الفحشاء ناء كبعد الأرض عن جو السماء

ومثلي في رجالكم قليل ومثلك ليس يعدم في النساء

فإن ترضي فردّي قول راض وإن تأبي فنحن على السواء

-رملة:(تدخل رملة صديقة زينب) ما هذا الذي تنشدين يا زينب؟

-زينب:رسالة من نصيب.

-رملة: وا فضيحتاه أية علاقة بينك وبين هذا الكلب الأسود؟

-زينب:أو من تفيض نفسه بمثل تلك المشاعر يقال عنه ما قلت يا أختاه؟

-رملة:أمجنونة أنت؟ إنّه زنجي ، زنجي

-زينب:وأي ذنب له في سواد جلده؟ألأنه زنجي نحتقره؟

-رملة:مهما يكن رأيك فيه فإني أرى أنه لا يليق بك أن تتحدثي عنه أو ترددي أشعاره.

-زينب:وأي بأس في ذلك

-رملة:إنّه عار عار على ابنة سيد كنانة الاتصال بزنجي)).[14]

إنّ العلاقة الجدلية القديمة بين العبد والسيد تظهر بجلاء في الحوار السابق، فالعبد محكوم عليه بأن يبقى في الأسفل دوما حسب وجهة نظر " رملة "، ولا أمل له في الوصول إلى القمّة، بينما تخالفها زينب التي تستجيب لمشاعرها وتحكّم عقلها،لأنّها تحسّ أنّ هذا العبد الزنجي يملك بين جوانحه قيما ومثلا وأخلاقا سامية ومشاعر صادقة ومبادئ أصيلة وبالتّالي فهي تبادله ودّا بودّ رغم إدراكها بأنّ إتمام هذه العلاقة مستحيل نظريا، إلا أنّها تتمسك بخيط الرجاء في أن يحدث الله بعد العسر يسرا ، وهذا المشهد الحواري يبيّن ذلك:

((-رملة:وإن رضي أبوك هل يتركه أعمامك وعشيرتك؟

-زينب:ما بك يا أختي إنك تعيدين إلى ذهني صورة الجاهلية الأولى، أليس هو مسلما؟

-رملة: نعم إنه مسلم ولكنه عبد.

زينب:لا إنه ليس بالعبد فقد أعتقه الأمير عبد العزيز بن مروان عند وفاته وأوصى به خيرا.

رملة:وإن كان عتيقا فهو زنجي وكان عبدا لأحد أعمامك.

زينب:إني لا أقول بجميع هذه الترهات)).[15]

فالظاهر من الحوار وجود صراع بين قيّم قديمة(علاقة السيد بالعبد) تمثلها رملة

و تتمسك بها و تدافع عنها، وقيّم جديدة تتمثل في المساواة والأخوة التي أشاعها الإسلام بين الناس،وأن الناس سواسية كأسنان المشط، والفرق بينهم ليس بالشكل أو باللون، وإنّما بالتقوى والعمل الصالح،أما المظاهر والمناصب وغيرها فهي من المنح التي أعطيت للنّاس كلّ ونصيبه في هذه الدنيا.

وفي خطوة تمثل تصعيدا للموقف ودفعا به نحو النهاية يرسل نصيب إلى زينب عارضا عليها الزواج، وهنا تظهر براعة وحنكة فاضلة –التي أرسلها نصيب إلى زينب–في إقناع زينب وتنبيهها إلى قيمة الموقف الذي يمثله زواجها – وهي بنت السادة –من نصيب الشاعر الزّنجي، والمشهد الحواري الآتي يبين ذلك:

((–فاضلة:ذلك يوجب عليك أن تضربي المثل الحسن، فزواجك من هذا الزنجي الذي ظهرت نجابته، وتأكد صلاحه، وأصبح من جلساء الخليفة، ومن سماره المفضلين سيكون حجة على الذين لا يدركون الحق أو يستنكفون عنه.

–زينب:إذن فأنت تنصحينني بالزواج منه)).[16]

وبعد حوار طويل ،وبعد تردّد خوفا من كلام الناس وخصوصا أبناء قبيلتها، تقتنع زينب بالزواج من نصيب، والفضل الكبير في اقتناعها يعود إلى فاضلة ؛التي تقنعها بأنّ زواج نصيب يتوسط فيه الخليفة سليمان بن عبد الملك وبالتالي فهذا الزواج يجب أن يتمّ ولا يرد، وتحسّ زينب بقيمة موقفها من خلال زواجها من زنجي فتتساءل:

((–زينب:أهي بطولة يا فاضلة؟

–فاضلة:نعم يا بنيتي، هذه هي البطولة فليست البطولة في الثبات أمام الخطر فقط وإنما هي أيضا في التعبير عن الحقائق رغم ما يبدو من ضباب وملابسات فأنت بطلة في معركة المساواة بين الأجناس، وفي تعيير الأشخاص بقيمته الحقيقية لا بألوانهم)).[17]

لقد اعتمد السائحي الحوار بين فاضلة وزينب مستعملا الإقناع العقلي، داعيا إلى تجاوز الأفكار القديمة التي تكرس الطبقية والعنصرية ،وبيّن أنّ الإسلام قد قضى على أشكالها المختلفة، فأساس التفاضل في الإسلام يتمثل في تقوى الله وصالح الأعمال.

أما الفصل الثالث فقد خصّصه الكاتب ليخبر بأنّ الشاعر الزنجي قد حجّ إلى بيت الله الحرام رفقة زوجته،كما استعرض بعض النفحات الإيمانية وأثر الحج في الإنسان ، وبين أن قيمة الإنسان عموما تستمد من الأعمال التي يحسنها والتي تعود بالفائدة عليه وعلى الناس كافة.

لقد انتصرت الأفكار الجديدة التي غرسها الإسلام في النفوس على الأفكار القديمة التي كانت سائدة، وفي هذا تأكيد على ضرورة نبذ القيم السلبية التي تطفح بالعنصرية والكراهية والطبقية والاستعلاء، فالأصل واحد والأشكال والألوان شتّى.

3- **تمثيلية " ابن زيدون بين قرطبة واشبيلية**" أو الصراع من أجل الحب والسلطة.

خلال خمسة فصول يستعرض السائحي مشاهد من حياة ابن زيدون والحياة في الأندلس بشكل مصغر مبيّنا ما وقع من أحداث في حياة ابن زيدون وهو في خضم بحثه عن المجد السياسي ،والحب الحقيقي وصراعه المرير مع ابن عبدوس على الفوز بحب ولادة بنت المستكفي شاعرة الأندلس،وبين قرطبة واشبيلية تدور أحداث هذه المسرحية.

إنّ أهمّ ما يمكن تسجيله من خلال الحوار بين ابن زيدون وخادمه علي هو وقوع قلاقل في مدينة قرطبة وترقب ابن زيدون لها علّه يظفر بمركز سياسي مرموق من خلال المشاركة فيها ومدح الوافد الجديد إلى القصر، ولكن أحلام ابن زيدون تذهب أدراج الرياح إذ يسيطر أبو الحزم بن جهور على الأوضاع ويخمد الفتن والقلاقل والمؤامرات، ويبدأ في البحث عن ابن زيدون ليسجنه، وهذا المشهد الحواري يبيّن حقيقة الصراع بين ابن زيدون وابن عبدوس حول السلطة والمرأة:

((-علي:إن رأيك يا مولاي في الحساد حق،وإن استنتاجك صحيح،وأظن أنه لا يوجد شيء يصلح بينك وبين الملك إلا الفرار.

-ابن زيدون:إياك أن تعيد هذه السذاجة مرة أخرى كيف أفر وأترك الوزارة وولادة فريسة صائغة لابن عبدوس؟ أجننت؟)). (18)

وينجح ابن عبدوس في الإيقاع بابن زيدون حيث يقنع الملك ابن جهور بأن ابن زيدون هو العقل المدبر للفتن والقلاقل التي حدثت في قرطبة فيتم سجن ابن زيدون، وداخل السجن تنشأ صداقة بين ابن زيدون وحارس السجن الذي يسهل له أمر الفرار، فيكتشف ابن جهور –بعد فوات الأوان – قيمة ابن زيدون،وبعد وفاة الملك ابن جهور يتولى ابنه أبو الوليد ملك قرطبة فيمدحه ابن زيدون بقصيدة تكون سببا في عودته إلى السلطة:

((-ابن زيدون: للجهوري أبي الوليد خلائق كالروض أضحكه الغمام الباكي

ملك يسوس الدّهر منه مهذب تدبيره للملك خير ملاك

جارى أباه بعدما فات المدى فتلاه بين الفوت و الإدراك

شمس النهار وبدره ونجومه أبناؤه من فرقد و سماك

-أبو الوليد :أجدت وأطربت يا ابن زيدون، أنزل على الرحب والسعة وتقلد أمورك كسالف عهدك وأجدر)).[19]

لقد كان ابن عبدوس معتمدا على سلطته لإخضاع ولادة،ولما فلت من يده زمام السلطة لجأ إلى التحايل علّه ينال مراده منها ،فلا يفوز عليه ابن زيدون في النّفوذ والحبّ إلا أنّه يفشل في تحقيق أمانيه ، أما ابن زيدون فإنه لا يقنع بما وصل إليه ويسعى سرّا عند ملك اشبيلية –المعتمد بن عباد–من أجل التنسيق للهجوم على قرطبة والجمع بينهما في مملكة واحدة:

((-المعتمد:هل أتممت جميع التدابير؟

-ابن زيدون:نعم أيها الملك وما هو إلا أسبوع حتى تصبح ملك قرطبة واشبيلية.

-المعتمد:تلك يد لن ننساها لك.

-ابن زيدون:أرجو أن يوفقنا اله إلى النصر من أقرب الطرق فإذا تمّ ذلك فإني سأكون سعيدا جدا لأنّي لا أرغب في أن يموت القرطبيّون بأيدي الاشبيليّين إلا إذا لم يكن من ذلك بدّ)).[20]

وبعد أن يسيطر المعتمد على قرطبة تحدث في اشبيلية قلاقل واضطرابات، فتقنع حاشية الملك–التي يزعجها وجود ابن زيدون في السلطة– الملك بأن يرسل ابن زيدون لإخماد الفتنة في اشبيلية مصحوبا بابن الملك سراج الدولة بن عباد، وذلك بتحريض من ابن عمار وابن مرتين، رغم مرض ابن زيدون وشيخوخته الذي تعاجله الوفاة في هذه المهمة متأثرا بالحمّى، وهذا المشهد الحواري يلخّص حياة ابن زيدون:

((-ولّادة:مسكين أنت يا ابن زيدون،لقد قدر عليك أن لا تستقر في موطنك أياما إلا لتجمع من حولك الحساد والكاشحين كي يوغروا عليك صدر الملك، وإذا أنت في السجن أو مشرد فار، أو موجه لإخماد فتنة.

-علي:خبريني يا ولادة ما علاقة مولاي بإخماد فتنة اليهود في اشبيلية؟

-ولّادة:أبدا لا توجد أية علاقة وإنما هم القاعدون حول الملك يدبرون المؤامرات ويكيدون للعاملين.

-علي:إذن فإن مولاي ما يكاد يستريح من كيد ابن عبدوس عند الجهاورة حتى يصاب بابن عمار وابن مرتين يكيدان له عند ابن عباد)).[21]إنّ ما يمكن تسجيله من خلال تتبع وقراءة تمثيلية " ابن زيدون بين قرطبة واشبيلية "

ذلك الصّراع الكبير الذي ميّز حياة ابن زيدون، صراع من أجل الحب ، وصراع من أجل السلطة،وصراع مستمر مع الكائدين والحاسدين.

لقد اعتمد السائحي على فصول ومشاهد بينها فواصل زمنية ومكانية، وهو بذلك يترك للقارئ الفرصة لتوقّع وقوع أحداث لم يتم ذكرها، ويمكن القول إنّ تمازج الشعر بالنثر في الحوار، مردّه وجود شاعر مثل ابن زيدون، فهو شاعر بليغ وشعره سبب بعض ما حصل له من خير وشر، والشّعر لا يرد في الحوار إلا إذا تكلم ابن زيدون، أو تكلمت ولّادة، والحبكة لا بأس بها((والمقصود بالحبكة هو التنظيم العام للمسرحية ككائن متوحد وتوصف بأنّها عملية هندسية لأجزاء المسرحية وربطها ببعضها ...ومن ثم فإن الحبكة لا يمكن فصلها عن جسم المسرحية إلا نظريا فقط)).[22]

فقد جاءت الأحداث مراعية للتسلسل التاريخي، ورغم عدم توفر الوحدة الزمنية والوحدة المكانية لأنّ سير الأحداث يستغرق عدّة سنوات وليس يوما وليلة كما هو متعارف عليه، كما تدور الأحداث في كل من قرطبة واشبيلية، ويبدو أنّ هذه المسرحية من الصعب تجسيدها على خشبة المسرح نظرا لتعدد الأمكنة وتنوع المشاهد التي تحتاج إلى تغير الديكور عند كل مشهد تقريبا ،وهذا شيء من الصعب تحقيقه.

4-**تمثيلية "ابن خلدون** " أو " من المجد السياسي إلى المجد العلمي"

تدور أحداث هذه المسرحية حول فترة محددة من حياة المؤرخ العربي الكبير أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون، إنها الفترة التي تتراوح ما بين سنة 748و785هـ أي حوالي نصف القرن الرابع عشر الميلادي (1378/1347) ويبيّن السائحي سبب اختياره لهذه الفترة بالذات من حياة ابن خلدون بقوله:((إنّ اختيار هذه الفترة من حياة ابن خلدون له ما يبرّره بالنسبة للشباب الجزائري، ذلك أن هذه الفترة تكاد تكون حوادثها قد مرّت فوق التراب الجزائري وفي مدنه،قسنطينة، و بجاية، وبسكرة، والمسيلة،والجزائر ، وملیانة، وتلمسان،وقلعة بني سلامة في ناحية فرندة، هذا من جهة ومن جهة ثانية لأنّ الأحداث التي جرت خلالها تعتبر في نظري هي المادة الخام التي استخلص منها ابن خلدون عناصر كتابه العظيم (المقدمة)، هذه المقدمة التي بفضلها اخترق المؤرخ العربي الأزمان وسبق الأجيال وتخطى حدود الأمصار)).[23]

لقد حاول السائحي على مدار خمسة عشر مشهدا تكثيف الأحداث ليقول الشيء القليل عن حقيقة الشعب الجزائري الذي يرفض كل أشكال الحكم التي لا توفر له الحرية،ومن تجارب ابن خلدون مع هذا الشعب انبثقت

عبقريته لتعبّر عن حقيقة العمران وأسس الملك وأعمار الدول ،وفعالية العصبية،فابن خلدون تولى الحجابة في مدينة بجاية تحت حكم الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد ،وفي المشهد السادس نقف على درس سياسي يقدمه ابن خلدون متمثلا في الذهاب إلى حلّ المشاكل مباشرة وقبول المغامرة حيث قرر التوجه شخصيا إلى المعتصمين بالجبال وإجبارهم على دفع ما عليهم من أموال الدولة، وهذا ما يتضح في هذا الحوار بين ابن خلدون وأميره:

((-ابن خلدون:لقد قررت أن أخرج بنفسي للاتصال بهم وإقناعهم بكل الوسائل والتفاهم معهم، وسوف أعود بأموال الدولة وصداقة هؤلاء الأشاوس إن شاء الله.

-أبو عبد الله:إنّها مغامرة خطيرة.

-ابن خلدون:لكنّها الطريق الوحيد لضمان سير الدولة وإعادة هيبتها ومكانتها.

أبو عبد الله:لقد فرجت همّي وفّقك الله)).(24)

إن السلطة تستلزم أحيانا اتخاذ قرارات جريئة وشجاعة ، وهذا ما أقدم عليه ابن خلدون ليسترجع الأموال التي أخذها هؤلاء الخارجون عن الطاعة، وبحكم كونه رئيس الحكومة بالمعنى المعاصر، فهو مطالب بتوفير الموارد المالية اللازمة لها حتى تستمر وتنمو وتتطور.وتدور عجلة التاريخ و ينهزم حاكم بجاية فيصبح ابن خلدون خائفا يترقب ،متنقلا من مدينة إلى أخرى إلى أن يصل إلى بسكرة حيث يستضيفه أميرها، وبعد مدة من إقامته فيها يرد كتاب من أبي حمو موسى الزياني بتولية ابن خلدون قلم خلافته ، ولكن ابن خلدون يعتذر عن القبول ويقدم شقيقه بدلا عنه ، ويبدي رغبته في التفرغ للعلم والأدب لأنه مل السّياسة وما فيها من صراع وكفاح ومكائد وحروب، ويستقر أخيرا بقلعة بني سلامة، وينقطع إلى التفكير والتأمل في سير الحياة وأحداثها، وزوال الممالك والدول وقيام أخرى فيهتدي أخيرا إلى علم العمران البشري،والمشهد الحواري الآتي يبيّن ذلك:

((-علي:إن إقامتنا هنا طالت أكثر مما ينبغي.

-ابن خلدون:كل شيء بإذن الله يا بني، إنه لم يحكم علينا بقضاء ثلاث سنوات هنا إلا لأمر يريده.

-علي:عسى أن يكون أمره خيرا.

-ابن خلدون:اللهم إننا لا نسألك رد القضاء،وإنما نسألك اللطف فيه...يا بني قليلا من الصبر وسوف يفتح الله.

-علي:سوف يفتح الله(يخرج علي ويبقى ابن خلدون في شبه غيبوبة ثم بعد مدة يشرع في الكلام فيقول:)

-ابن خلدون: لو يتفكر الخلق في العمران البشري وضرورة الاجتماع الإنساني، وما يعتريه من البداوة والحضارة وما ينتج عن العصبية ودرجة الحسب في العقب الواحد التي لا تكون إلا في أربعة آباء...وفي ولع المغلوبين أبدا

بالغالبين والاقتداء بهم في شعارهم وزيهم ونحلتهم وسائر أحوالهم وعوائدهم(يدخل ابنه محمد دون أن يتكلم أو يتوقف ابن خلدون عن الكلام) لو فكروا في ذلك لرأوا أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك في أصلها ترجع إلى الدين، ورأوا أن الأوطان الكثيرة القبائل قل أن تستحكم فيها دولة ، ولوجدوا أن طبيعة الملك إذا تحكمت وأصبحت المنافسة على الانفراد بالمجد والحصول على الترف والدعة، أقبلت الدولة على الهرم وذلك لأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص وأن الظلم مؤذن بخراب العمران.

-محمد:(بعد صمت قليل) السلام عليك يا أبي

-ابن خلدون:وعليك السلام من أنت؟

-محمد:محمد يا أبي ما هذا الكلام الغريب الذي كنت تتحدث به الساعة.

-ابن خلدون:ابشر يابني ، أبشر، لقد فتح الله ن لقد اهتديت إلى ما ينبغي أن أعمله سأكتب كتابا لم يسبق له مثيل". (25)

لقد حاول السائحي من خلال الحوار السابق رصد لحظة متميّزة من التاريخ البشري، لحظة ولادة الفكرة، فكرة كتاب المقدمة، وقد ابتكر شخصياته وحاول أن ينطق بألسنتهم، واتسمت شخصياته بقربها من الواقع ، إن لم نقل أنها واقعية تماما ، فرغم طول المدة الزمنية التي تدور فيها الأحداث إلا أنّ المشاهد جاءت مكثّفة، والغرض منها التركيز على أحداث تاريخية بعينها وهذا يتماشى مع"القاعدة الذهبية في العمل المسرحي تأليفا وتمثيلا كذلك هي مطابقة العمل المسرحي للحياة في حركته الداخلية والخارجية معا". (26)

لقد تمّ تتبّع بعض المشاهد الحوارية ولحظات من الصراع في تمثيليات السائحي، فمن الصراع من أجل إثبات الذات إلى تمايز الآراء حول قيمة الإنسان وهل يقاس الإنسان بمظهره أم بأخلاقه وأفعاله الصالحة ؟ وصولا إلى ابن زيدون وصراعه من أجل كسب الوزارة وتحقيق مجد سياسي ، وصراعه مع ابن عبدوس من أجل كسب حب ولّادة وانتهاء بالصراع من أجل المجد السياسي ومن بعده البحث عن المجد العلمي عند ابن خلدون.

إنّ ما قام به السائحي رصد لمشاهد من الحياة ومن التاريخ ، وتمثيلياته تؤرخ لشخصيات حقيقية عاشت في أزمنة متباعدة وبيئات مختلفة ولهذا جاءت مضامينها ثرية، وهي منتخبات أراد من خلالها الكاتب الوقوف على قيم إنسانية، ولأنّ أفعال الإنسان وأقواله تتميز بوجود أهداف وغايات ومقاصد فقد استحضر مشاهد من التاريخ لأخذ الدروس والعبر من السّابقين في ميادين العلم والمعرفة والسياسة والحياة العامة، وحتّى في الأدب التّمثيلي فإن

أبطال السائحي يتّسمون بالواقعية في التعبير عن آرائهم ، والأحداث طبيعية لأنّها مستمدة من الواقع،والحوار يتّسم بالإقناع وذلك بالمزاوجة بين الخطاب الشّعري والخطاب النّثري حسب تكوين وطبيعة كل شخصية من شخصيات تمثيلياته،كما غلب المنطق على الآراء والأقوال الصادرة عن الشخصيات، فتتناسب أقوال الشخصيات مع مراتبها وطبقاتها وثقافتها في المجتمع وداخل التمثيليات ، إذ نجد الخادم والأمير والملك والسلطان والخليفة والحارس والشاعر،ونخلص إلى القول أخيرا إنّ تمثيليات السائحي هي اقتناص و تلخيص لمواقف تاريخية حقيقية أكثر من كونها أعمالا مسرحية ذات أسس فنّية ثابتة.

المصادر والمراجع(الإحالات) :

[1]-السائحي-الشاعر الزنجي وأخواتها " مجموعة تمثيليات- المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-1990-ط1-ص 15

[2]-المصدر نفسه-ص15

[3]- المصدر نفسه -ص15

[4]- شاكر الحاج مخلف-في الأدب والفن- منشورات دار علاء الدين-دمشق -سوريا-2000-ط1-ص41

[5]-السائحي- الشاعر الزنجي وأخواتها -ص27/26

[6]-المصدر نفسه -ص 33

[7]-المصدر نفسه -ص37

[8]-ميشال عاصي- الفن والأدب- المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان-ط2-1970-ص174

[9]-السائحي- الشاعر الزنجي وأخواتها -ص50

[10]- المصدر نفسه -ص53

[11]- المصدر نفسه-ص.ن

[12]-المصدر نفسه-ص61

[13]-المصدر نفسه -ص70

[14]-المصدر نفسه -ص80/79

[15]-المصدر نفسه -ص 82/81

[16]-المصدر نفسه-ص89

[17]-المصدر نفسه -ص91

[18]-المصدر نفسه -ص 120

[19]-المصدر نفسه-ص139

[20]-المصدر نفسه -ص 154/153

[21]- المصدر نفسه-ص 155

[22]-شاكر الحاج مخلف-في الأدب والفن-ص82

[23]- السائحي- الشاعر الزنجي وأخواتها-ص161

[24]-المصدر نفسه -ص192

25-المصدر نفسه -ص232

[26]-ميشال عاصي-الفن والأدب-ص 170